إلي أي مدي يتصرف الإنسان

كمخلوق عاقل؟

كلنا ندرك أن الإنسان هو مخلوق عاقل. زوّده الله بالعقل والفكر. ووهبه القدرة علي الفهم والإدراك. وعلي الاستنتاج. والذاكرة. والتمييز.. فإلي أي مدي يستخدم الإنسان عقله؟ وهل عقله هو الذي يقوده؟ أما تقوده مؤثرات أخري توقف العقل وتتولي تصريف الأمور؟ وما هي هذه المؤثرات؟

ثم ما هي نوعية عقل كل فرد؟ وما قدرته؟

"١" هل هو عقل ذكي؟ أم عقل عبقري؟ أم متوسط الذكاء؟ أم ضعيف الذكاء؟ أم لا ذكاء له علي الإطلاق؟

ذلك لأن عقليات الناس تتفاوت في نوعيتها ودرجتها. وحسب درجة التفاوت. يختلف الفهم والتفكير والتمييز..وتختلف أيضاً نوعية الذاكرة: هل هي مجرد ذاكرة جامعة وحافظة؟ أم حافظة ومرتبة؟ أم ذاكرة فوتوغرافية؟ وكذلك ما مقدار سعة هذه الذاكرة؟ وهل هي تسعف صاحبها في أي وقت يريد. أم تخونه؟ وأيضاً ما نوع تفكيره؟ هل هو تفكير شامل يلمّ بالموضوع من جميع زواياه؟ أم يتركز في نقطة واحدة ويهمل الباقي؟ وهل هو تفكير سطحي أم تفكير عميق؟ وما درجة عمقه؟

وعلي هذا القياس. إلي أي حد نقول عن كل أحد إنه عاقل؟

ليس الناس علي حدّ سواء. حتي في فهمهم. سواء فهم ما هو حادث.. أو ما ينبغي أن يحدث.. وليست كل العقول متساوية في قدرتها علي القيادة. فهناك شخص بالكاد يقود نفسه. وآخر يمكنه أن يقود غيره أيضاً. وثالث يحتاج إلي من يقوده.

"٢" وهناك من تتعبهم عقولهم. وقد تتعب غيرهم معهم أيضاً

إنسان قد تعترضه مشكلة. فيفكر في حلها. ويساعده عقله علي ذلك وآخر تستقطبه المشكلة وتتعب هي عقله الذي يعجز عن حلها. بل إنها تستولي علي عقله وكل فكره: فينشغل بها في صحوه وفي نومه. وربما في أحلامه أيضاً. ولا تترك له فرصة ليفكر في غيرها. وهكذا تتعب فكره وترهقه. ويقيناً يؤثر كل ذلك علي أعصابه ونفسيته.

"٢" إنسان آخر يقع عقله تحت سيطرة الشك. فيقود الشك عقلَه

يشك في الأحداث وما تحوي. ويشك في الناس وفي تصرفاتهم ونواياهم.. يشك فيما يقال وما يُكتب. وفيما يسمعه من غيره. ويشك في قدرته علي التصرف. ويشك في المستقبل.

مثل هذا الشك يتعبه ويؤلمه. وقد يجلب له الخوف والاضطراب. ومع ذلك فعقله غير مستطيع أن يخرج من دائرة هذا الشك. ومهما قيل له من تبريرات تزيل هذا الشك. فإنه يشك في هذه التبريرات أيضا. وفي مدي صدقها. ويسأل: ما هدف التبرير؟ ويشك في الهدف!

وقد ينمو الشك عنده. فيشمل كل شيء. وكل أحد حتي أعز الأحباء ويصبح فريسة للشائعات والظنون والأكاذيب.

هنا العقل يكون تحت سيطرة نفسية مريضة. هي التي تقوده!

ومن أصعب الشكوك التي تصيب بعض العقول: الشكوك الإيمانية. مثل الشك في وجود الله عند الملحدين وأمثالهم. والشك في المعجزات عند بعض رجال العلم. والشك في الحياة الأخري وفي القيامة العامة. والشك في بعض العقائد والمسلّمات.

وإذا وصل العقل إلي هذا الحد من الشك. ما أسهل أن يستلمه الشيطان. ويزوّده بأفكار وأفكار. ويرشده إلي قراءات يزيد شكّه وإلي زملاء من نفس النوع يعمقون الشكوك التي تحاربه ويضيفون عليها.

هل تظنون مثل هذا العقل عقلاً خالصاً؟! أو أن صاحبه يستطيع أن يقود نفسه. بينما هو تحت قيادة أخري؟!

"٤" العقل يتأثر أيضاً بالجهل

سواء كان جهله نتيجة لعدم المعرفة. أو نتيجة لمعرفة مضللة وصلت إليه. وبالجهل قد يقع العقل في تصرفات خاطئة لا تعفيه من المسئولية. لأن الجهل بالقانون لا يعفي من حكم القانون.

والعجيب أن الإنسان قد يتحمس لجهله ويدافع عنه. ويهاجم وجهات النظر الأخري. وكما يقول المثل العربي "الناس أعداء ما جهلوا".

مثل هذا العقل يحتاج إلي التوعية السليمة. وإلي المعرفة الصادقة المقنعة. والمعروف أن العقل يستنير بالمعرفة.

وأصعب أنواع الجهل الذي يحارب العقل. هو الجهل الذي يرفض المعرفة

أعني حالة العقل الذي يتمسك بجهله بإصرار. مقتنعاً تماماً بما عنده من أفكار. ويشكّ في كل توعية. ويرفض كل شرح. ومثل هذا الإنسان ربما تصقله التجارب. وتقنعه بخطأ جهالته.

وعلي أية الحالات. كلما ينمو الإنسان في المعرفة. تتغير طريقة تفكيره. علي حسب نوع المعرفة الجديدة التي تصل إليه.

"٥" هناك عقل آخر يقوده مبدأ معين يؤمن به

فهو يعيش داخل هذا المبدأ. سواء كان سليماً أو خاطئاً. ولا يحب أن يتزحزح عنه. بل يستمر حبيساً فيه.

مثل أب من مبادئه أنه لا يمكن أن يزوّج ابنته الصغري قبل اختها التي تكبرها سناً. وبهذا تضيع فرص كثيرة علي تلك الابنة الصغري. وإن كانت اختها الأكبر منها أقل جمالاً أو أقل جاذبية!

صدقوني حتي بالنسبة إلي بعض الفلاسفة الذين يحكمهم العقل فرضاً: ينطبق عليهم المثل القائل بأن نقطة البدء في الفلسفة أحياناً لا تكون فلسفية! أي ربما يبدأون بعامل نفساني معين. بلغ من عمقه أنه أثّر علي مجري تفكيرهم الفلسفي.

مثل كرة ألقيتها من علي جبل: إن ألقيتها شرقاً. تستمر بكل قوتها في هذا الاتجاه الشرقي. وإن ألقيتها غرباً. تستمر في ذات المجال الغربي بكل قوتها أيضاً.

"٦" نوع آخر من العقل يقوده أب أو معلم

فهو منقاد إلي عقل آخر يسيره كيفما يشاء. ويرشده إلي الطريق الذي يعتقده. حسب مستوي هذا العقل المرشد.

وليس لدي هذا الإنسان المتتلمذ أية فرصة أن يتصرف أو حتي يفكر. إلا داخل دائرة المعلم في تفكيره وإرشاده. وتكاد شخصيته تكون مفقودة تماماً. وبخاصة إن كان ذلك المعلم أو المرشد شديداً في سلطته. يتطلب من تلامذته لوناً من الطاعة العمياء! ويزيد هذا الانقياد العقلي الكامل. إن كان عقل الذي يطيع مدفوعاً بثقة كاملة فيمن يطيعه. أو بعهد أخذه علي نفسه في طاعته. أو إن اقتنع أن مجرد المناقشة مع من يرشده. هي لون من الكبرياء. أو خروج عن الأدب في طاعة المعلم!

"٧" وكثيراً ما يخضع العقل لمؤثرات عائلية أو اجتماعية

مثال ذلك أن زوجة أب تستطيع أن تؤثر علي عقله وفكره. حتي يسيء معاملة ابنه من زوجته الأولي المتوفاة. مصدقاً ما تصبه في أذنيه من مؤثرات. ومقتنعاً أنه إنما يقوم بتأديب ابنه وتقويم سلوكه!

المجتمع أيضاً كثيراً ما يترك تأثيره علي عقول الناس. فيكون الشاب مثلاً في وسط الجماعة متأثراً بفكر الجماعة وانفعالها. مثل تلميذ في مظاهرة يردد كل ما يقوله زعماء المظاهرة. بدون تفكير. فإذا قُبض عليه وألقي في الحبس وجلس وحده. حينئذ يفكر عقله بطريقة أخري.. وقد يلوم نفسه علي اندفاعه وراء المظاهرة.

"٨" مثل هذا العقل أيضاً. قد تقوده الأخبار أو الشائعات

أو يقوده أي كتاب يتأثر به. أو أي فيلم في السينما أو التليفزيون أو الفيديو. لأن عقله قد تعود الاستسلام والخضوع لقيادة أخري تؤثر عليه.. حتي لو كان ذلك من الأخبار التي يسمعها من الناس. أو من شخص أقوي منه فكراً ومنطقاً.. وقد يكون ما يسمعه مجرد شائعات. أو أمور مبالغ فيها. وقد يثبت بعد فترة بطلان تلك الشائعات أو عدم صحة تلك الأخبار. ولكن بعد أن تكون قد تركت في نفسه أثراً. ليس من السهولة أن يزول.

أما العقل السليم القوي. فهو يفحص ويدقق

فكل ما يسمعه. يفحصه ويحلله. ويقبل منه ما يقتنع به. أو يترك بعض الأخبار الأخري لمزيد من الدراسة والاستقصاء.

علي أنه يمكنه أن ينتفع ببعض ما يقوله الناس إن كان صحيحاً. ولكنه لا يسلّم ذاته لهم تسليماً كاملاً. ولا يكون مثل ببغاء "عقله في أذنيه"!

بعض القيادات ما أسهل أن تؤثر عليهم تقارير مضللة. وبخاصة لو اتخذوا بسببها قرارات سريعة مبنية علي باطل.

وما أكثر ما انحلت أسرات وفشلت نتيجة لأقاويل لا صحة لها.

"٩" العقل قد تؤثر عليه الأعصاب أو الخوف

إن كان الشخص سريع التأثر. سريع الانفعال. وعقله يفكر مدفوعاً بانفعالاته. كمن يتخذ قراراً في ساعة غضب أو ساعة ضيق. دون تحقق أو دراسة. فيندم علي ذلك.

أو شخص يكون حساساً جداً في نفسيته: أقل كلمة تجرحه أو تثيره. وأقل تصرف يخدش كرامته ويؤوله عقله تأويلات عديدة. مثل هذا الشخص لا تكون ردود فعله تتمشي مع العقل المتزن.

كذلك قد يوجد إنسان يصفونه بأنه إنسان بسيط. كثيراً ما يقبل عقله أموراً لا يمكن أن يصدقها متعمق باحث عن الحقيقة.

كل هذا يدل علي أن عقل الإنسان يتأثر نوع نفسيته

"١٠" وهكذا فإن العقل يؤثر عليه الخوف

الخوف يشلّ العقل عن التفكير. ويقود الإنسان بدلاً منه أو يجعل العقل يشتغل لحسابه "لحساب الخوف".

كأن يخطيء إنسان. ويخاف من نتائج أخطائه. فإذا بالخوف يدفع العقل إلي تغطيتها بحيل أو أكاذيب أو اتهام غيره ظلماً. كل ذلك لكي يستر نفسه. فيغطي خطأه الأول بأخطاء أخري.

"١١" والعقل أيضاً قد تقوده الشهوة

أية شهوة : شهوة جسد. أو شهوة انتقام. أو شهوة منصب أو ألقاب. أو شهوة مال. أو شهوة عظمة أو شهرة.

وأمام الشهوة يتوقف العقل. وتسيطر الشهوة علي الموقف كله.

وتستخدم العقل لتنفيذ أغراضها. فلا يكون العقل هو القائد. بل مجرد المنفذ لأمراض الشهوة.

فالذي تسيّره مثلاً شهوة الانتقام. تري كل عقله يفكر في كيف ينتقم. ولا يفكر مطلقاً في عواقب ذلك. ولا في طائلة القانون. ولا في وصايا الله. بل يكون محصوراً وحبيساً داخل هذه الشهوة. تسيطر وحدها

علي عقله وتفكيره. فينفذ ويضيع نفسه. لأن عقله لم يستطع أن يمنعه من الجريمة. بل دبّر له كيف ينفذها.

"١٢" والعقل أيضاً قد تقوده العاطفة

هناك عاطفة تقود العقل. وعاطفة بلا عقل. بينما هناك عقل بلا عاطفة. وعقل متزن: له عاطفة. ولكنه يتحكم فيها.. إنه أنواع أربعة. كل نوع منها يختلف عن الآخر.

فالعقل الذي تقوده العاطفة. مثاله الأم التي تمنع ابنها من السفر أو الغربة حيناً. لمصلحته. إذ تفضل بقاءه إلي جوارها أكثر من منفعته.

والعاطفة التي بدون عقل. مثالها الأم التي تتدخل في كل شئون ابنتها المتزوجة. ولكن بدون عقل. فتؤدي إلي خراب بيتها وانفصالها عن زوجها وتعب أطفالها.

هناك مثال آخر في العلاقة بين العاطفة والعقل: الطبيب الذي يكتب شهادات طبية مزورة بحجة أن ينفع مريضه في خداع رؤسائه في وظيفته. أو يشفق علي فتاة حملت سفاحاً. فيجري لها عملية خادعة.

"١٣" هناك عقل تجري له عملية "غسيل مخ"

إذ يقع هذا العقل تحت تأثيرات مضادة متتالية. وشكوك متعددة. وضغوط فكرية. تقتلع منه كل ما في ذاكرته وتفكيره. وتحشوه بفكر آخر جديد عليه. دون أن تعطي له فرصة للرد علي الأفكار الجديدة.

ويخرج من هذه الدائرة التي حُبس عقله فيها مدة معينة. وإذا به يفكر بطريقة جديدة عكس تفكيره السابق. بل قد يتحمس للفكر الجديد الدخيل عليه.

حدث مثل هذا في صفوف الوجوديين. والملحدين. وأصحاب بعض الأفكار الحديثة. وأحياناً في بعض مجالات العلم أو الفلسفة.

"١٤" تأثر العقل بالأمثال الشعبية بحيث تقوده

وهي خبرات بعضها علي حق. والبعض عليه الكثير من النقد. وهذا موضوع طويل يحتاج إلي مقال خاص.